

كلمة الدكتور إبراهيم الجعفري في مسابقة نصرة القرآن الكريم الدولية الأولى في
بغداد 2011/9/25

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته.
قال الله (تبارك وتعالى)، في محكم كتاب العزيز:
(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ
لِلْمُؤْمِنِينَ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)).

لا يمكن أن يسبر غور القرآن أحد، لكننا نستعين بالقرآن وبهذين النصين الشريفين
من سورة يونس؛ لنفهم القرآن كما يصف نفسه.. كيف يأخذنا القرآن من ضفة البعد
والضلال والانحراف، ليعبر بنا محطة بعد أخرى، ويقطع الطريق شوطاً بعد آخر،
حتى ينتهي إلى الضفة الأقرب من ضفة الناس إلى ضفة المؤمنين:
(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ)).

المحطة الأولى، يخاطبنا القرآن الكريم فيها بلغة الناس، لينتهي بشوطه الأخير بلغة
المؤمنين.. من البعد حيث العقل المنحرف، فيقرع عقولنا بقوة الدليل والبرهان:
(قل يا أيها الناس قد جاءكم موعظة)).

والكلمة الطيبة المقرونة بالتقريع:
(فأعرض عنهم وَعَظُّهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا)).

من هناك، من البعد يعلمنا القرآن كيف نبني الإنسان باعتباره وحدة بناء المجتمع ،
وحين نتحدث عن المجتمع نتحدث عن البنية التحتية للدولة ، وحين نبني عقولنا
وعقول الآخرين بفكر صحيح نكون قد وضعنا يدنا على المحطة الأولى.

كل ظاهرة من حولنا تعكس فكراً ، وتعكس ثقافة سوا ء كانت الظاهرة ظاهرة
مرضية أم كانت ظاهرة صحية، حتى إن السيد الطليلطباي (قدس الله نفسه) العلامة
صاحب الميزان يقول: ما من مفردة سلوكية إلا وأن تنطوي على فكرة ، فالقرآن
يأخذنا في الشوط الأول لمخاطب عقل الآخر:
(يا أيها الناس).

أيها البعيدون. ولم يقل يا أيها المؤمنون قد جاءكم موعظة من ربكم ، يقرع عقولنا
بقوة الدليل:
(قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)).

ثم يعبر من عالم الأفكار ومن عالم العقيدة ، لينقل لنا عالم القلب حيث الإحساس والإيمان ، ومن مقولة القلب والأحاسيس ، ولكن الله حَبَّبَ إليكم الإيمان وزَيَّنَ ه في قلوب المؤمنين: ((وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ)).

العربي إذا وضع يده على صدره ، وقال : لك مكانة في صدري ، يقصد بذلك في قلبه. هذه استعارة بلاغية قرآنية كريمة: ((وشفاء لما في الصدور)).

عبر بنا من محطة العقل إلى محطة القلب ؛ حتى يتكفل القرآن الكريم بشفاء صدورنا، وما تنطوي علي من سوء الأحاسيس، ومن الحسد ومن سوء الظن ومن الغيرة التي تنطوي على العصبية الجاهلية ، وما نضمره في داخل قلوبنا من الأمراض، ولكل شيء شفاء.. والقرآن الكريم شفاء لما في الصدور ، وبعد أن يأخذ القرآن دوره في شفاء الصدور والقلوب ينتقل إلى المحطة الثالثة ليضعنا على الطريق الصحيح: ((وهدى)).

وليس بعد الهدى إلا الضلال، ليتكفل بنقلنا من الطريق البعيد المنحرف إلى طريق الهدى إلى المضري بالطريق الصحيح، وما إن يستوفي العقل والقلب ، ويأخذ حصة كافية من الرشاد والهدى إلا ويرسوه بزورق الشخصية على الضفة الأخيرة: ((رحمة)).

عندئذ نستحق أن نوصف إذا عبرنا هذه المحطات بـ (أنا مؤمنون) ، هكذا يصف القرآن الكريم نفسه، وهكذا ينشأ الفرد على هذه الأشواط في طريق الهداية هذه الأشواط الأربعة، وهكذا يبني المجتمع من خلال بناء الفرد.. الحكومة والدولة ليست نظرية تنزل بطريقة فوقية ، فهي تتبع من داخل المجتمع ، والقرآن الكريم يشيد النظرية في بناء الدولة على أساس البنية التحتية المجتمعية، لا على أساس أنها بناء فوق يَنزِلُ بطريقة استعلائية: ((إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)).

اليوم أضحت هذه المسألة القرآنية مسألة في علم الاجتماع السياسي ، وبدأ الأبعدون إلى جانب الأقربين يدركون أن المجتمع والدولة لا يمكن أن يقوموا إلا على أسس مجتمعية، والبناء الفوقي لا يستقر ما لم تستقر القاعدة المجتمعية، ولا نستغرب إذا سمعنا (جون آدمز)، وهو ثاني رئيس في أمريكا بعد (جورج واشنطن) ، يقول: (لم تستطع أمريكا أن تستقل من نير الاحتلال البريطاني إلا بعد أن استقلت بداخلها بعقلها وهي تفكر ، وقلبها وما تختزن من مشاعر) ، بعد أن استقلت بداخلها استطاعت أن تتخلص من الاحتلال البريطاني الذي دام مدة طويلة.

القرآن الكريم يصدق بذلك منذ وقت بعيد ، ونحن نقرأ القرآن الكريم ينبغي أن نتدبره، وصدق رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، حين قال: (قَرَأَ الْقُرْآنَ ثَلَاثًا فَقَارَى الْقُرْآنَ يَسْتَدِرُّ بِهِ لِلْمُلُوكِ وَذَلِكَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، وَقَارَى الْقُرْآنَ حَفَظَ حُرُوفَهُ وَضَيَّعَ حُدُودَهُ وَذَلِكَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، وَقَارَى الْقُرْآنَ اتَّخَذَ مِنْهُ بَرْنَصًا وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَيَشْفَعُ لِمَنْ يَشَاءُ).

(البرنص) عند العرب اللباس الذي يغطي الجسم من قممق إلى أخمص القدم، فلتأخذ منه برنصاً أي يعمل بمحكمه ومتشابهه، ويحل حلاله، ويحرّم حرامه.

علينا أن نفتح على كتاب الله (تبارك وتعالى)، ونعطر أسماعنا وألسنتنا بالتلاوة، ونحضر مثل هذه المجالس؛ لنستفيد، ولنتتوّر من يتلون القرآن الكريم، ونعمل بما أوصى به أمير المؤمنين (صلوات الله وسلامه عليه): (ذلك القرآن فلستنطقوه).

لأن يتكفل بفناء الإنسان أيّ كان هذا الفرد أم زوجاً، ويعطيك القرآن الكريم لمسات النظرية القرآنية في أن تشيّد العلاقة الزوجية على أسس قرآنية، ويقدم لك نماذج في القرآن الكريم زوجاً صالحاً وامرأة خائنة، ويقدم لك زوجة صالحة وزوجاً خائلاً كما هي آسيا بنت مزاحم: ((وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ)).

(آسيا بنت مزاحم)، سيدة نساء عصرها استدبرت عصر فرعون بكل ما في ه من زخرف وثراء وعناصر شدّ، وتحدّته بكل ما في من قسوة وشدة فرعونية، وقبلها: ((ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ)).

هذا نموذج، ونموذج الولد البار لإسماعيل (عليه السلام): ((قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ)).

خطاب نبويّ من موقع الأبوة، وجواب نبويّ من موقع السيّوة.. هذه مصاديق وصور من القرآن الكريم، ونموذج آخر: ((يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ)).

ويقول نوح (عليه السلام)، من رسل العزم يقول لابنه: ((اركب معنا)).

هـ ذا منشأ العلمانية، رفض:
(قَالَ سَأُوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ)).

تلوذ بجبل بشيء مادي لتخلص من عذاب الله، هذه هي العلمانية المنحرفة، رفض، ليست لدين مشكلة أن تلوذ بجبل فقد لاذ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بالجبل، عندما ضاقت به مكة، وانكفأ بلجبل، وتوجّه إلى الله (تبارك وتعالى) بالجبل، ولكن ذلك لم يكن الاعتكاف وذلك الاختلاف إلا لغرض القرب والأنس بالله (تبارك وتعالى)، وليس بالابتعاد عن الله كما فعلها ابن نوح.. تلك نماذج يقدمها لنا القرآن الكريم، وفي كل نموذج يقدم لنا صوراً.

المطلوب: أننا حين نسمع القرآن الكريم يجب أن نستمع:
(وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)).

القرآن الكريم من شأنه أن يأخذ كل مديان بشرط أن نتقبل منه، وهو كالسما عندما تلقى بمطرها ومائها على الأرض حيث لا يوجد فرق بين اليمين واليسار والوسط، لكنك عندما تنظر إلى الأرض تجد أن الأرض تتفاوت بالتلقي، فمكان حفرة كبيرة تأخذ من السماء ماءً كثيراً، ومكان حفرة صغيرة تأخذ كمية قليلة من الماء، ومكان وسط محدّد لا تقف عليه قطرة واحدة. لا نهم السماء بلؤها تفاوتت في العطاء إنما ننظر إلى الأرض التي تتفاوت في التلقي.

القرآن الكريم هو القرآن لا جديد في الآيات القرآنية الكريمة 6236 آية، إنما الجديد بقارئ القرآن وبطريقة التلقي؛ من هنا يريد منا أممي المؤمنين:
(ذلك القرآن فاستنطقوه).

أي اسألوه يُجبكم، وينبغي أن نتخذ من كتاب الله منطلقاً ليس فقط لأبناء الدين الإسلامي، فهو كتاب هداية لكل البشر، اختزن حقائق وقواعد عقلية وقواعد أصولية؛ ليتكفل بالمجتمع، ويحلّ المعضلات كافة، حتى يعبر إلى أبناء الديانات الأخرى ومن لا يؤمنون بالديانات كذلك، وفي القرآن الكريم قواعد عقلية اختزنها دُرراً متناثرة في صور وآيات شتى.

علينا أن نقوم بعملية إعمار مجتمعاتنا بالصُّعد والمجالات كافة، خصوصاً أننا اليوم نعيش عصر انقصار الشعوب، وعصر إعادة الخريطة السياسية لإنشاء الحكومات، اليوم هو عصر الشعوب التي بدأت تحضر، وتقوّض البنى الفوقية للحكومات التي استبدت، وأحكمت قبضتها على رقاب الشعوب.

من أبرز الدول التي هبّت عليها أعاصير الثورة التي ابتليت بمرض التلبّد للحكام، والتوريث لأبنائهم: (تونس، وليبيا، واليمن، ومصر... وفي مناطق أخرى من

العالم)، والقرآن الكريم يعطينا قاعدة، ويستصرخنا بأنه يجب أن يكون العدل رائدنا: ((إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ)).

لا بد أن نأخذ من زاد القرآن الكريم، ونتعلم من أبناء القرآن ممن جسّدوه، ممن كان خلقه القرآن وهو رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، ونأخذ من القرآن الناطق من أمير المؤمنين (صلوات الله وسلامه عليه)، ومن أهل البيت (عليهم السلام)؛ حتى نتعلم كيف نطبق القرآن في حياتنا، ونهزم الظلم بكل ألوانه، ونعيش العدل، ونشره في كل أرجاء الدنيا. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.